الجزء الأول

شهادات شخصيّة حيّة

سياسية أو اجتماعية. التظاهرات السلمية في سوريا لم تتوقف في أكثر من منطقة ولا حتى ليوم واحد، هذه حقيقة وحاصلة. ولكنها اليوم خارج «الصورة»، هذا ما يجعلها بأهمية ما لا يحصل.

«صورة داعش»، ليست محطة عنف فريدة في الربيع العربي الذي كانت شرارتُه الأولى «صورة إحراق محمد البوعزيزي لنفسه». «صورة التعذيب الذي تعرّض له خالد سعيد» التي ألهبت ساحة التحرير، و«صورة واقعة الجمل» التي شكلت نقطة تحول أساسية باتجاه سقوط النظام في مصر وصولا إلى «صورة حمزة الخطيب» في سوريا. «صور،» كانت على الرغم من عنفها تحمل معاني الثورة، وما تفرضه من أمل لأن مصدر العنف فيها كان الأنظمة التي أخرجت بطشها من عتم المعتقلات إلى ضوء الشوارع، أمام عدسات الناشطين الذين راحوا يصوّرون، ويوثّقون وينشرون ويفضحون.

حتى العنف الموجود في صفوف الثوار، صوّر ووثّق، ولكنه لم يتمكن من فرض نفسه كظواهر اجتماعية. «صورة الرجل الذي أكل قلب ضحيتِه» كادت تنافس «صورة حمزة الخطيب» من حيث الانتشار، ولكنها بقيت «صورة فردية لم يتبناها أحد.» لم تشكّل كتيبة عسكرية تحمل اسم آكل القلوب الذي بقي على الرغم من كثرة انتشار صورته وصمة عار على جبين «الثورة». هنا تماماً تبدو خطورة داعش متجاوزة حدود انتشارها الجغرافي. على مدى اكثر من سنتين استطاع الحراك المدني في سوريا أن ينتج ثورة التقى المشاركون فيها مع ثوار دول الربيع العربي الأخرى على قيم مشتركة حرية ومواطنة وعدالة اجتماعية... النشطاء السوريون حتى وان كانوا قد فشلوا بإسقاط النظام، فهم نجحوا ومنذ الأشهر الأولى لثورتهم بنزع شرعيته. حصل ذلك بشكل أساسي بعد نجاحهم بكسر «الصورة المركبة» التي اجتهد النظام في تثبيتها على مدى عقود: صورة الأب القائد الأبدي في الداخل، صورة النظام الداعم للمقاومة الممانع لإسرائيل عربياً والدولة العلمانية ضامنة حقوق الأقليات دولياً...

في دراسة تحت عنوان «صورة الشهيد في الأداء والنشاط الإلكتروني السوري»، يتحدّث إدوارد زايتر عن نجاح الناشطين السوريين بكسر حصرية النظام لعدد من القيم التي اعتمد عليها لتثبيت شرعية حكمه على مدى أربعة عقود ومن بينها مفهوم

الشـهادة. فالشـهيد في ظل نظام البعث كان مـن رفض الإمبريالية، كالشـهداء الذين أعدمتهم السـلطات العثمانية في سـاحة المرجة وسـط دمشـق، ومن قاتل الصهيونية كشـهداء حرب 73 مع إسـرائيل. على مدى فتـرة حكمه، وفي تقليد ورثه ابنُه بشّـار من بعده، عمد حافظ الأسـد على تثبيت فكرة أن الشـهداء سـقطوا دفاعا عن الوطن والنظام. فكرة كان يثبتها عبر «صورة تبث مرتين في السنة» يظهر فيها واضعا أكاليل الورود على أضرحة الشهداء ومتناولا الأزهار من أبناء شهداء آخرين.

ما نجح الناشـطون به بحسـب زايتر هو اسـتعادة ملكية الشهيد، فهو بعد الثورة اصبح من يسقط متحدياً النظام وليس دفاعاً عنه.

المعركـة كانت في هـذه المرحلة بين الخير والشـر، والخيار بيـن الديكتاتورية والديمقراطيـة... اليـوم ها هي داعش تكسـر «صورة الثورة في سـوريا» ومن وراءها «صـورة الربيع العربي» مسـتخدمة الكثير من أسـلحته. المعركة صـارت معركة قوة، والخيار بات محصوراً بين نظام البعث وخلافة البغدادي.

هكـذا هي «الصورة اليـوم»، حتى وإن كانت صورة مفروضـة، وحتى إن كانت «صورة منقوصة.»

ولكـن مـاذا عن من هـم «خارج الصـورة»؟ ماذا عـن «الصـورة البديلة»؟ تلك «الصورة المسـروقة» و«الصورة المهربة» و«الصـورة المهزوزة» «منخفضة الدقة» التي فاجأ السوريون بها أنفسهم قبل أن يفاجئوا العالم كله، ماذا عنها؟

«حياة الصورة»: بطولة على جانبي العدسة

مما لا شـك فيه أنه على الرغم من الخبرة التي راكمها الناشـطون الذين تحول عـدد لا بـأس به منهم إلى مصوريـن محترفين، بعضهم بجهودهـم الخاصة وآخرين بسـبب التدريـب الـذي خضعوا لـه، وعلى الرغم من تحسـن جودة منتجهم بسـبب التقنيـات المسـتخدمة، إلا أن القيمـة الخَبريـة لـ «صـورة الثورة السـورية» تراجعت بشـكل جـذري على مدى السـنوات الماضية. لـم يحصل ذلك فقـط كنتيجة حتمية لكسـر الحصـار المفروض من قبل النظـام الذي منع الإعـلام التقليدي من الدخول إلـى سـوريا وتغطيـة ما يحصـل فيها خـلال المراحل الأولـى من الثـورة، ولا حتى كنتيجـة للمنافسـة غيـر العادلة مع «صـور الحرب الأهليـة» الأكثر «حدثيـه» و«صور

داعـش وأخواتهـا» والأكثر إغراء خـلال المرحلة الأخيرة، ولكن أيضا وبشـكل كبير بسبب تراجع قناعة من هم خلف الكاميرا بجدوى ما يقومون به.

تقـول هبـة خالد، وهي ناشـطة من ريف دمشـق، إنها في السـنة الأولى للثورة كانت مقتنعة بأهمية الإنجاز الذي كانت تحققه في وجه النظام. «النظام كان يكذب، كان يقول لا توجد دبابات، كنت أحمل لقطة الدبابة وهي تقصف وأسـرع هاربة بها إلى بيروت...الآن لم يعد عندي هدف فضح النظام، فأنا أعرف أن العالم كله يعرف وأن هذه المعرفة لن تغيّر شيء.»

هبـة هـي الفتاة نفسـها التي بقيـت تضحك في كل مـرة نجحت فيهـا «بتهريب الثـورة عبر ثيابها الداخلية» كما كانت تقول. دورها، كان تهريب «الصورة الممنوعة» إلـى خارج الحدود السـورية ومن بعدها إلى العالم عبر مكاتـب القنوات التلفزيونية العربية ووكالات الإعلام الأجنبية.

خوفهـا كان يفوقـه معرفتهـا أنها ليسـت وحدهـا، وأن إلى جانبهـا الآلاف من الناشـطين والناشـطات الذيـن ربطـوا مصائرهـم بمصيـر ثورتهـم. فـ«الصـورة التي هرّبتهـا» كان آخـرون قد «سـرقوها» كانوا هم أيضا ينتمون إلى شـبكة من الناشـطين المدنييـن راحت تكبر يوما بعد يوما. وما كانت وسـائل الإعلام التقليدي إلا واحدة مـن القنـوات التي اعتمدوا عليهـا «لتثبيت صورة ثورتهم»، الأمـر الذي كان بنظرهم شرطاً أساسياً من شروط بقائها.

فلولا انتشـار «صورة حمزة الخطيب»، على سبيل المثال لا الحصر، لما كانت التظاهـرات. ولو لم تكـن التظاهرات، لما كانت «الصورة التـي خرجت إلى العالم» لتؤكـد أن ما يحصل في سـوريا جزء من الربيع العربـي، وأن الاحتجاجات المطالبة بتغييـر الأنظمة التي شـاهدها العالم من سـاحات تونس ومصـر واليمن ها هي تلقى صداها في إدلب وحمص في منافسـة مباشـرة مع الصورة التي دأبت وسـائل إعلام النظـام علـى تثبيتها للقول إن ما يجري في سـوريا أعمال تخريبيـة وجزء من مؤامرة دولية ضدها.

أمـا النقطـة الأهـم، انه لولا خروج هـذه الصور إلـى العالم، لمـا كانت حقيقة حصولهـا مهمة. هـذا درس تعلّمه السـوريون جيداً، وما تفاصيل مجـزرة حماه التي بقيت مطمورة أكثر من ثلاثة عقود إلا فصل من فصوله.

إذا كانت المشاركة بالتظاهرات هي الخطوة العلنية، إن لم نقل العملية، الأولى باتجاه كسر حاجز الخوف، فإن التصوير في التظاهرات كان بمثابة النظر في عين الخوف وتحديه بشكل مباشر.

يقول عامر مطر، مدير «مؤسسة الشارع للإعلام والتنمية» إن الثورة بالنسبة له بدأت في الثاني من يناير من العام 2011 مع الاعتصام الأول أمام السفارة المصرية. مهمته كانت التنسيق مع فنان من أجل كتابة لافتات يحضرها لاحقا إلى مكان التظاهرة. مطر، الذي درَس الصحافة في جامعة دمشق، وبدأ عملَه الصحفي، كان يمتلك كاميرا ولكنه لم يتجرّأ على إحضارها. بعد ذلك، في التظاهرة أمام السفارة الليبية في شهر فبراير، أحضر الكاميرا ولكنه لم يستخدمها. يقول «وحدهم عناصر الأمن كانوا يصورون مستخدمين كاميرات هواتفهم، أنا لم أمتلك الشجاعة الكافية.»

حاجز الخوف هذا سقط مع امتداد رقعة الاحتجاجات. كان لا بد من التوثيق، عامر وكثر غيره بدأوا بالتصوير. عند اعتقاله للمرة الأولى في شهر آذار، اعتقلت الكاميرا معه في البداية، كان التصوير عبر استخدام كاميرات خفية بشكل أقلام أو نظارات يتم شراؤها في بيروت، وتبلغ قيمة الواحدة منها حوالي المئة دولار. أسبوع بعد أسبوع راحت بقعة الناشطين تتوسع بموازاة تحسن نوعية المادة التي كانوا يقدمونها.

«عندما حصلت على كاميرا، شعرت أن لدي مسؤولية كبيرة، وان أموراً مهمّة تعتمد علي، لم أشعر أن شجاعتي استثنائية، كلّ من كانوا من حولي كانوا مثلي،» تقول ريم حلب، التي أصيبت بطلق ناري أثناء تصويرها لزميل لها كان قد سقط هو الآخر بنيران النظام في تظاهرة أمام جامعة حلب.

في البداية كانت المادة التي عمل الناشطون على «سرقتها» بضعة دقائق من المادة الخام، غير المهنية، وفقاً لأية معايير. مع الوقت صارت المشكلة بكثافة المادة، ما فرض على الناشطين أن يبدأوا هم بعملية المونتاج (القصّ) لإرسال أفضل ما لديهم، وصولاً إلى كتابة النصوص وتحضير التقارير الكاملة.

سوء «نوعية الصور» تقنياً وفنياً، على الأقل خلال المرحلة الأولى من الثورة، دفع ناشطون آخرون إلى الابتكار من أجل إسماع صوتهم وتثبيت صورة ثورتهم متّكلين بشكل أساسي على وسائل التواصل الاجتماعي. فكانت عشرات صفحات

الفايسبوك وآلاف المقاطع على يوتيوب (حتى شهر يوليو من العام 2012 كانت شبكة شام الأخبارية وحدها قد نشرت اكثر من 122000 مشاهدة وحصدت اكثر من 32 مليون مشاهدة) وكانت «الصورة» حافلة بكل أنواع الفنون من الدمى والرسوم المتحركة إلى الغرافيكس والغرافيتي إلى الموسيقى والفيديو كليب. «الصورة التي سعى الناشطون إلى نشرها» صارت مع مرور الأسابيع والأشهر بمثابة توثيق لمراحل واشكال مساهماتهم من جهة وتأثير هذه المساهمات على حياتهم الخاصة من جهة أخرى.

«فاجأتنا الثورة، كل هذه الطاقات، كل هذا الإبداع... فاجأتنا أنفسُنا، وهذا إنجاز لا عودة عنه.» تقول علا رمضان.

«معركة الصورة» التي بدأ الناشطون وكأنهم يكسبونها بسهولة، لم يتنازل عنها النظام الذي سعى هو الآخر إلى تفعيل ماكيناته الإعلامية والدعائية لتشويه «صورة المعارضة» من جهة (عبر تقارير قصيرة ومطوّلة مفبرَكة لدعم نظرية أن المعارضة عبارة عن عصابات مسلحة مأجورة من الخارج) وتجميل «صورة العائلة الحاكمة» من جهة أخرى (صور الرئيس وهو يزور حمص، فيلم السيدة الأولى وهي تستقبل أمهات الشهداء في عيد الأم وهو إنتاج أعاد إلى الأذهان إلى حد بعيد «صورة تحقيق مجلة فوغ» تحت عنوان «زهرة الصحراء» عن السيدة السورية الأولى أسمى الأسد، والذي اضطرت المجلة بعد أشهر على بداية الثورة أن تسحبه وتعتذر عن نشره).

ثورة من دون قائد... أبطال «خارج الصورة»؟

من جهة إذاً، النظام الذي لم يوفّر جهداً لتثبيت «صورة القائد»، وعند المقلب الآخر داعش التي تقوم بالأمر ذاته، إذ إن «صورة البغدادي» مثلاً، بداية كقائد وصولا إلى موقع الخلافة، كانت قد دمغت في الأذهان حتى قبل ظهوره العلني الأول.

بين النقيضين ضاعت «صورة القيادات» في صفوف القوى المعتدلة على الرغم من أن أي من المناطق لم تفتقر إلى أبطالها المحليين. أغلب هؤلاء استطاعوا أن يفرضوا قيادتهم كرموز للثورة بعد مقتلهم أو غيابهم القصري. ينطبق ذلك على مروحة الناشطين من باسل شحادة إلى رزان زيتونة ورفاقها مروراً بالأب باولو، وعلى من وصلوا إلى مراتب القيادة العسكرية على الجبهات بعد ان

الفايسبوك وآلاف المقاطع على يوتيوب (حتى شهر يوليو من العام 2012 كانت شبكة شام الأخبارية وحدها قد نشرت اكثر من 122000 مشاهدة وحصدت اكثر من 32 مليون مشاهدة) وكانت «الصورة» حافلة بكل أنواع الفنون من الدمى والرسوم المتحركة إلى الغرافيكس والغرافيتي إلى الموسيقى والفيديو كليب. «الصورة التي سعى الناشطون إلى نشرها» صارت مع مرور الأسابيع والأشهر بمثابة توثيق لمراحل واشكال مساهماتهم من جهة وتأثير هذه المساهمات على حياتهم الخاصة من جهة أخرى.

«فاجأتنا الثورة، كل هذه الطاقات، كل هذا الإبداع... فاجأتنا أنفسُنا، وهذا إنجاز لا عودة عنه.» تقول علا رمضان.

«معركة الصورة» التي بدأ الناشطون وكأنهم يكسبونها بسهولة، لم يتنازل عنها النظام الذي سعى هو الآخر إلى تفعيل ماكيناته الإعلامية والدعائية لتشويه «صورة المعارضة» من جهة (عبر تقارير قصيرة ومطوّلة مفبرَكة لدعم نظرية أن المعارضة عبارة عن عصابات مسلحة مأجورة من الخارج) وتجميل «صورة العائلة الحاكمة» من جهة أخرى (صور الرئيس وهو يزور حمص، فيلم السيدة الأولى وهي تستقبل أمهات الشهداء في عيد الأم وهو إنتاج أعاد إلى الأذهان إلى حد بعيد «صورة تحقيق مجلة فوغ» تحت عنوان «زهرة الصحراء» عن السيدة السورية الأولى أسمى الأسد، والذي اضطرت المجلة بعد أشهر على بداية الثورة أن تسحبه وتعتذر عن نشره).

ثورة من دون قائد... أبطال «خارج الصورة»؟

من جهة إذاً، النظام الذي لم يوفّر جهداً لتثبيت «صورة القائد»، وعند المقلب الآخر داعش التي تقوم بالأمر ذاته، إذ إن «صورة البغدادي» مثلاً، بداية كقائد وصولا إلى موقع الخلافة، كانت قد دمغت في الأذهان حتى قبل ظهوره العلني الأول.

بين النقيضين ضاعت «صورة القيادات» في صفوف القوى المعتدلة على الرغم من أن أي من المناطق لم تفتقر إلى أبطالها المحليين. أغلب هؤلاء استطاعوا أن يفرضوا قيادتهم كرموز للثورة بعد مقتلهم أو غيابهم القصري. ينطبق ذلك على مروحة الناشطين من باسل شحادة إلى رزان زيتونة ورفاقها مروراً بالأب باولو، وعلى من وصلوا إلى مراتب القيادة العسكرية على الجبهات بعد ان

كانوا في الصفوف الأولى أيام التظاهرات السلمية امثال محمد حاف في سراقب أو الضباط المنشقين أمثال عبد القادر الصالح (الحجي مارع) ويوسف الجادر (أبو فرات).

جزء من عدم بروز هذه الشخصيات على المستوى الوطني كان وجوب السريّة بالعمل تفادياً لاستهداف النظام، وهو الأمر الذي حصل بالنتيجة بكثير من هذه الحالات. ولكن جزء من ذلك أيضا متعلق بنزعة لدى السوريين برفض فكرة «القائد» الواحد أو حتى بـ«حصر الصورة» بشخص واحد. يرى طلال ديركي، مخرج فيلم «العودة إلى حمص» أن غياب «القائد» مشكلة كبيرة في الثورة، وأساسها أن السوريون رفضوا صورة «البطل» الخارجي فيما الداخل «حقل ألغام» لم يسمح بحماية «القادة» ولا بحماية إنجازاتهم.

«نحن مخترقون حتى النخاع الشوكي،» يقول طلال في الحديث عن القيادات متوقفا عند قصة بطل فيلمه عبد الباسط الساروت كواحد من أبرز وجوه وأصوات الثورة السورية. نجم كرة القدم الذي قاد التظاهرات في حمص، مغنياً إلى جانب امرأة علوية هي الممثلة فدوى سليمان. الطليعي في حمل السلاح دفاعاً عن ثورته...آخر الخارجين من حمص بعد حصارها الذي ظهر مؤخرا بصورة المناصر لجبهة النصرة.

«عبد الباسط كان قاب قوسين أو أدنى لكي يكون رمزاً للجميع، لكن تجربة الحصار وقسوتها لم تترك له غير أن يكون لفئة ذات توجّه ديني...مات كل من كانوا معه وجاع وانهزم، والنصرة أَوَته وحَمَته من عملاء النظام داخل الحصار. نحن كنا في الخارج، نحن وشعاراتنا وحياتنا الجميلة تركناه وحيدا».

بحسب من يعرفونه عبد الباسط الساروت لم يذهب إلى النصرة إنما أشاد بهم وفق تجربته الشخصية، وهو لن يكون سلفياً، بل انه يروّج لـ«صورة» انه صار سلفي في بحث عن انتصار ما، أو تبرير ما.

إنه يدخل إلى «ما بقي من صورة ثورته» ليكون هو «داخل هذه الصورة» ما بقي من ثورة آخرين كثر مثله لم يجدوا لهم مكاناً لا في صور معارضة الخارج، ولا تحت رايات الجهاد السوداء.

«ثورة الصورة»

«الصورة» من دون شك قاتمة، ولكن الاعتماد عليها بشكل كامل لتقييم الوضع خاطئ اليوم، وبنفس مستوى الخطأ قبل الثورة، يوم كانت «الصورة» تدل على أن شؤون سوريا بخير. وراء «خير» سوريا كانت نواة كل ما كشفته السنوات الثلاثة الماضية، وهنا «معركة الصورة المقبلة.»

فبموازاة تراجع الدور الخبري للصورة، تقدّم دور آخر قد يكون اكثر أهمية، أقلّه على المديين المتوسط والطويل. ففنون الكاميرا التوثيقية منها والسينمائية أثبتت أنها «الوريثة الشرعية» لـ«صورة الثورة السورية.» تجربة فيلم «العودة إلى حمص» الذي عرض في مهرجانات عالمية، وحاز على جائزة الفيلم الوثائقي الطويل في مهرجان ساندانس لم تكن الوحيدة، إذ إن عددا كبيرا من المصوّرين الهواة انتقلوا إلى مرحلة إنتاج الأفلام الوثائقية. حتى المحترفين أصلاً كان عليهم إعادة النظر بما يقدّمونَه. تجربة مجموعة أبو نضارة التي تأسست قبل عام من اندلاع الثورة في سوريا بهدف تقديم صورة بديلة عن الحياة في سوريا خارج إطار الإعلام الرسمي والرقابة، جديرة بالوقوف عندها. المجموعة التي حصدت جائزة أفضل فيلم وثائقي قصير في مهرجان ساندانس عن فيلم «سورية: يوميات الزمن الحاضر» قدّمت منذ بداية الثورة، وبشكل أسبوعي أفلاماً قصيرة نجحت من خلالها بأن «تحرّر الصورة» من سياقِها الواقعي لتغوص في عمق الأحداث ومنها إلى عمق المجتمع السوري.

يقول شريف كيوان المتحدّث باسم المجموعة إن أهم ما جرى على مستوى «الصورة خلال السنوات الثلاثة الماضية» كان خلق علاقة مباشرة بين السينمائيين والجمهور الواسع. الأمر الذي كان مستحيلا قبل الثورة، من جهة لأن النظام كان يمنع أي مخاطبة مباشرة للجمهور العريض، ما جعل من هذا الجمهور في كثير من الأحيان جمهوراً افتراضياً غير مضمون الوجود. ومن جهة أخرى لأنه لم يكن هناك من وسيلة إعلامية تشجّع على الإنتاج خارج إطار المواضيع المتفق عليها: معارضة، دين، إسرائيل.

فكرة الأفلام التي أعطت دور البطولة للسوريين العاديين كانت: إن المشاهد، أينما وجد، وأياً كان موقفُه، مما يجري في سوريا، يجب أن يفكر بنفسه عند مشاهدة «الضحية السورية.» الأمر الذي ينقل «صورة ما يجري في سوريا، من الحضيض

اليوتيوبي، إلى ذاكرة الإنسانية جمعاء.»

«الكاميرا هنا تجسّد العلاقة بين المخرج والجمهور المفترض، قبل الثورة كانت الكاميرا ذليلة لأن المخرج عينه ترف، والجمهور مختبئ، بعد الثورة صار لها أجنحة، لأن المخرج ينظر إلى الواقع بعين ثابتة وهو يعلم أن الجمهور ينتظر منه نظرة جذرية من دون مواربة.»

النظرة الجذرية هذه لا تخلو من الأمل. فالمساحة للأمل والحب والخيال موجودة في أفلام أبو نضارة... وهي موجودة في حياة هبة خالد التي فقدت ثقتها بالعالم الذي لم يفعل شيء أمام الصور التي ساهمت هي بتهريبها، ولكنها لم تفقد ثقتها بالثورة، وما حملته من ثورات شخصية تساهم هي اليوم بحفظ ذاكرتها. «الصورة لم تعد للحاضر، إنها للتاريخ»، لو لم تكن الكاميرا، لما كانت لي ولا لأي من السوريين ذاكرة...المهم أن لا تسقط الكاميرا، عندها فقط، ينتهي الحلم.»

الاستشفاء من شراسة السرطان بمطلع الربيع العربي

فوزية أبو خالد

رائحة حرية في الإرجاء

فمن يحدس إتجاه الرياح

11/ 1/ 2011م

هل كنت أحدس ولو بنسبة واحد في الألف وأنا أستقبل العام الميلادي الجديد بنزق وغرور فيما أتنقل بين مضائق الواقع وفضاءات العالم الافتراضي مزهوة بصخب الشباب على الفيس بوك وتويتر وهم ينثرون بذور الربيع العربي في البر والبحر والأطراف المهملة من البلاد، غير ما كان يمشي في دمي من نشوة شرارة البوعزيزي التي أشعلت عرس تونس وأطلقت رائحة الحرية في الجهات، بأنني بعد أقل من أسبوع سأُنتزع نزعا من مساري الحياتي الآمن المعتاد ومقاوماتي اليومية المتواضعة لأمشي وحيدة ولكن مع الملايين في موكب مقاومة جماعي وشرس.. هل كنت أحدس ولو في أشر أو أعذب الأخيلة بأنه بعد شهر واحد فقط ستكون يدي المغموسة في أغوار البحث، المشغولة بمس مفاتيح لوحة المحمول، معلقة بجانبي كجناح مقطوع لا أستطيع الهرب من صرخات آلامها ولا البقاء مع حرمانها من الحبر، فيما اللافتات والهتافات والشبيبة وأصابع الشعب المصري العشرة وعيون الشباب العربي والأحرار كلها تكتب تاريخ تحرير جديد في ميدان التحرير. «الشعب يريد إسقاط النظام... شدي حيلك يا بنت شد حيلك يا ولد دي البلد بتنولد. الفجر قرّب والشباب صاحي صاحي طيبي يااااجراحي طيبي يااجراحي». صارت تلك الكلمات العفوية ملعقة عسل أقاوم بها علقم الوجع الضاري الراكض في صدري.

لقد كتب لي الشيخ عبد المقصود خوجة (مُكرم المثقفين)، بعد أن فقد ابنه في شرخ الشباب وخبر مقتل الطالب الجامعي خالد سعيد بالإسكندرية يستجرح

جرحه: «ليت لنا حياتين، حياة نعيشها وحياة أخرى نتأمل بها حياتنا ومفاجآتها الفاجعة أو لحظات الحنان التي تأتي من حيث لم نحتسب».

صرت كل يوم أصحو على وقع آلامي وركضي بين محاضراتي وبين فحوصاتي الطبية المفاجئة، أتفحص الحدث اليومي البسيط في حياتي والحدث السياسي الملتهب أمامي وأشعر بأنني وأنا في هذه اللحظة التي قد أكون فيها مهددة بالموت بدأت للتو أعيش أكثر من حياة دفعة واحدة. حياتي، والحيوات الصاخبة المتموجة بأكثر من جيل ثائر أمامي وداخلي في الفيس بوك وعلى قناة الجزيرة وعبر جهازي العصبي ودمي.

فيما كنت أنتظر نتيجة الخزعة وصلتني رسالة الزميل الباحث أ. د. عبد الوهاب بن حفيظ

يقول فيها أكتب لك من تونس الحرة وقد استجاب القدر.

فرددت هل تظن أنها نبوءة شاعر غادر الحياة وهو في شرخ الشباب بعد أن وهب حياته للشعر أو أنه بوعزيزي الذي انتزع لتونس أسباب الحياة بموته. لعلها الحرية التي عبر التاريخ البشري لم تقبل ولا تقبل بأقل من استبدال الموت بالحياة مهرا لها. فسلام لحرائر وأحرار تونس لريثما يحوّلون الحرية إلى حقيقة تمشي على الأرض برأس مرفوع وهذا هو التحدي لنا جميعا.

الحمد لله أن وهب الله جيلنا عمرا لنعيش ولو بالمشاهدة مشهد الثورات التي تفتقت عيوننا على ضوء القراءة عنها من ثورة الغار التي مثلتها الرسالة المحمدية إلى ثورة الأنوار التي انطلقت من فرنسا في مشتركات التوق الإنساني للحرية والكرامة والعدل واللقمة الحلال، بعد أن فقأ عيوننا سقوط شعارات ثورات الخمسينيات والستينيات والسبعينيات ونهبت أحلامنا أطماع أنظمة العسكر الواحد تلو الآخر بعالمنا العربي، بما كاد أن يحول في جيلي على الأقل الحلم بالتحولات إلى مستحيل رابع أو سابع.

نتيجة الخزعة إيجابية، كانت الفجيعة ستكون ساحقة لولا أنها ولدت على حافة البركان وفوق قمة جبل شاهق يبشّر باندلاعات مطلع الربيع العربي.

يوم 25 يناير

شعب مصر يستعيد مصر من الظل ويعيد شمسها على الخارطة العربية وعلى الشاشات العالمية. فبعد أن جرت بشكل منظّم محاولات جر مصر بعيدا عن موقعها التاريخي الطليعي وإدخالها في معزل قطري يسلّمها لشروط الجيرة الجائرة للاستعمار الإسرائيلي الاستيطاني على أرض فلسطين فهاهي مصر كما جاء بجريدة الإندبيندنت اللندنية تعيد النظر فيما تعرّض له دورها التاريخي من بطالة وتسريح بعد مرحلة كانت مصر بوصلة العالم العربي.

أخوض معركتي الذاتية مع ظرف الصحي المباغت الغادر بما يكاد يغيّر عاداتي المتأججة التي لا تهدأ عادة في العلاقة مع الواقع ومع ما حولي وبمن حولي. إلا أن تزامن هذا الظرف الشخصي مع حالة الغرق في مدينة طفولتي جدة ومع حالة الاشتعال الوطني الحارق بمصر يجعلني أرفض الانسحاب من المشهد المشتهى. فمن يرضى بالنزول عن السفينة وقد فار التنور إلا أولئك الهالكون الذين ليسوا من أهل نوح.

يخوض طالباتي معركتهم البحثية الذاتية الفذة مع دراسة أطروحة الإصلاح بالمجتمع السعودي دراسة نظرية ميدانية من منظور علم الاجتماع السياسي، فأجد نفسي كشريكة مباشرة في العمل وكمشرفة عليه متورطة إلى ما فوق حبال رقبتي في الذود عن المشروع بكل قطرة من وقتي الراكض ضدي.

الأسبوع الثالث من عام الأمل

7/ 2/ 2011م

شباب مصر

نساء مصر

فقراء مصر

مثقفو مصر

مسلمو مصر ومسيحيوها

شعراء مصر

المرأة السورية والثورة المضاعفة

خولة دنيا

عندما يبدأ القتال، تبتعد النساء إلى الخلف.

الخلف لا يعني اللامكان، فقد يعني المكان تماماً ولكنه المكان المخفي، المكان الأكثر أمناً، الأكثر حمايةً، والأكثر عملاً في أحيان كثيرة. هو المكان الأشبه بخلايا النحل، حيث تكوِّن النساء شبكتهن الخاصة بهن، بدأب وصبر واستمرار، لا يعيقهن المشهد العام وما يحمله من يأس، عن إكمال التفاصيل التي تعني الحياة يوماً بيوم وساعةً بعد ساعة.

عندما نزلنا لأول مرة في المظاهرات كانت مشاركة النساء محدودة، تراهن متجمعات في أماكن صغيرة على بعضهن البعض، يتم التعامل معهن في أحيانٍ كثيرةٍ بحماية مطلقة، حيث ترى شبكة من الأيدي المتقاطعة والمتشابكة لشباب غيورين يحاولون حماية مجموعة من النساء اللواتي يهتفن بهتافات الجميع، ورفض الجميع ومطالب الجميع. الخروج من هذه الدائرة المغلقة كان يحتاج لثورة أيضاً.

صراع المرأة منذ بداية الثورة كان واضح المعالم، فهي تريد التغيير، وتريد الكرامة وتريد الحرية. ولكن التعامل معها بقي كما هو، كعنصر أضعف يجب أن يغيب عن الصورة العامة لصراع الرجال بين بعضهم البعض، مالم يكن إدخالها من باب كسر العظم وإثبات الغلبة لطرف على آخر.

في أحيان كثيرة تمّ النظر إليهن كلون مختلف للثورة يجب أن يظهر بين حينٍ وآخر، وهذا انسحب على التعامل مع الأطفال كذلك، فتمَّ استغلال الهمجية الممارسة تجاههم وتجاههن لإثبات وجهات النظر لدى المتصارعين من الرجال. لكن كثيرات من النساء رفضن أن يكن في خلفية المشهد، فكانت لهن تظاهراتهن، كما كان لهن معتقلاتهن، وشهيداتهن. كانت لهن حكايتهن الخاصة، عن الموت، التعذيب، الاعتقال، الاختفاء، مواجهة النظام، كما مواجهة القوى الظلامية في المناطق التي وقعت تحت سيطرتها بعد تحررها من سطوة النظام.

قد تكون المعاناة الأفظع التي تعرضت لها النساء، هي استخدام العنف

تجاههن لأغراض سياسية، ومن بينها الاغتصاب الذي تم توثيقه في حالات الاقتحام الواسعة لبعض المناطق، فكان أداةً سياسية الغرض منها، إذلال الناس وإجبارهم على الخروج من تلك المناطق، من خلال إذلال النساء واغتصابهن.

لكن هذا كله لم يمنع النساء من العمل المستمر في مجالات كثيرة، حتى لو كان الثمن الاعتقال أو الموت.

في بداية الثورة كان هناك سعي لتعويض ما فات من البعد عن السياسة، فأقيم الكثير من التجمعات المدنية النسائية، حيث تم نقاش أمور تتعلق بالقوانين والدستور والحقوق، وحيث تم طرح مشاكل النساء، ومعوقات تقدّمهن، ولماذا يجب أن تشارك المرأة بالثورة في سوريا.

ولكن مع اشتداد الوضع سوءً، دخلت النساء في الهمّ اليومي المباشر بكل أشكاله وتبعاته، من الإغاثة إلى التمريض، إلى النزوح، إلى العمل في مجالات التعليم البديل، وورشات تمكين المرأة، والدعم النفسي. فكنّ بهذا المعنى الرافعة الحقيقية للمجتمعات الجديدة التي تشكلت بسبب النزوح واللجوء. وساعد في هذا الغياب الكبير للرجال بسبب الدخول في الحرب، أو بسبب الاعتقال أو الخوف من الظهور العلني.

فأصبح لدى النساء شبكات التواصل الخاصة بهن، كما شبكات التواصل بمشاركة الآخرين. لديهن جلسات نقاشهن، وفاعليتهن، وصوتهن الذي لا يمكن إنكاره.

صحيح أن النساء لم يتلقين الرصاص كما الرجال، ولكنهن قدّمن حصتهن من الدماء كما الرجال، كُنّ أمهات ثكالى، وأرامل متحملات، وبنات صابرات لشهداء يتساقطون في كل لحظة..

لكن هذا لم يتجلَّ للأسف على الصعيد السياسي، فلم تجنِ النساء الكثير من خلال مشاركاتهن الفاعلة والمستمرة، فمن جهة تعامل معهن النِظام، كمعارضة درجة ثانية، لا تخيف، ولكن يجب قمعها. ومن جهة أخرى تعاملت المعارضة معهن كذلك بنفس المنطق للأسف.

ويلاحظ هذا في نسب المشاركة في التجمعات التي أسستها المعارضة، حيث

كانت نسبة النساء المشاركات في كثير من الأحيان محددة سلفاً، وتم قبولها كنسبة مشاركة للمرأة كمرأة، وليس كمعارضة لها رأيها ووزنها ومشاركتها. ينسحب هذا على التكتلات السياسية كلها، من هيئة التنسيق، ثم المجلس الوطني، ثم الائتلاف، كما في المنبر الديمقراطي، أو لاحقاً القطب الديمقراطي. وعلى الأرض كذلك، نرى نفس المشكلة، رغم تماس ما تمَّ تشكيله مع الواقع المباشر، ومشاركة النساء فيه بكل قوتهن. فالمجالس المحلية التي تمَّ تشكيلها في المناطق المعارضة لم تقبل مشاركة النساء إلا بالنادر، ويتم إرجاع ذلك إلى الطابع المحافظ لتلك المناطق التي انبثقت فيها تلك المجالس.

في المجال العسكري لا يمكن الحديث عن الموضوع، رغم اللعب عليه من قبل جهتين: النظام الذي شُكّل جيش الدفاع الوطني من مواليه وشبيحته، وكان للنساء حصة فيه، حيث أظهرهن في أكثر من مناسبة باللباس العسكري والسلاح والتدريب الصارم. ولكن لم نراهن على جبهات القتال. وفي المعارضة كذلك فيما تم الاتفاق على تسميته (داعش) وعملياتها الانتحارية ومحاولتها إظهار بعض النساء راغبات بالاستشهاد، يتدربن لهذه الغاية، ويتم استخدامهن لتفتيش النساء في كثير من المناطق والمعابر.

إذن هي المرأة تدفع الثمن مرات ومرات، ويتم استغلالها مرات ومرات.

إن إردنا للثورة أن تكون للقضاء على التمييز ضد المرأة، فهو ما يجب أن نختبره في مراحل لاحقة في المستقبل، حين تهدأ الحرب، ويبدأ بناء الدولة. وهو ما يتطلب ثمناً أكبر، على نسائنا أن يعين أنهن سيدفعنه الآن ولاحقاً، وعليهن أن يكن مستعدات لهذه التضحيات.

في فترات مختلفة وعت النساء السوريات أهمية استقلالهن وضرورة تواجدهن في كيانات تطالب بحقوقهن، فظهرت تجمعات عدة للنساء، غير أن هذه التجمعات على أهميتها بقيت بعيدة نسبياً عن المشاركة الشعبية، وقد يكون السبب في هذا، أن هذه التجمعات جذبت النساء الأكثر اهتماماً والأكثر مشاركة سابقاً في الهم النسوي، وأكثر وعياً لقضايا النساء وكيفية المطالبة بحقوقهن. بالاضافة إلى عدم وجود حواضن شعبية تتمتع بالاستقرار والأمان النسبي للعمل ضمنها.

لا يمكن التعويل على هذه التشكيلات بمعزل عمّا يجري على الأرض، كما

أطفال مصر

دعاء

لا عدمتكم الشجاعة ولا الكرامة ولا البصيرة ولا الصبر
لا عدمتكم الحرية ولا الإباء ولا عزة النفس والأوطان
وأنتم تحفرون اليوم اسم مصر على جبهة التاريخ بحروف الخلود

وأنتم تكتبون المستقبل للعرب ولعشاق الحرية جميعا بحبر الروح وأطياف وتسيرون إليه على طريق موحشة ولكنها آهلة بأهل الأمل، وعرة لكنها معبدة بالتضحيات وعرائس الحلم. هذا الجزء الواضح الشفيف من المشهد المدهش الذي يأتينا مطعّما بالعرق والدم عبر شاشات العالم حاملا صوت الحق ونداءاته الندية الحرة، محمولا على أكف وأكتاف الشرفاء و الشعب المصري المجيد. أما المشهد الغامض الملتبس فهو الكثير من القراءات المرتبكة لما يحيط بهذا المشهد من احتمالات لا تتحمل انتصار الشعب المصري وترى أن مثل هذا النصر تهديد لمصالحها التي لا تستقيم مع إقامة دولة العدل والحق والكرامة والقانون والنظام، وترى في استقلال الأوطان بداية انكسار شوكتها وانحسار هيمنتها. ولهذا فليس لي ولنا على امتداد العالم العربي الذي يتابع بشغف وشجن أو بإشفاق ورجاء ما يجري على الساحة المصرية من بطولات شعبية وحملات مسعورة مضادة، إلا أن نثق ببطولات مصر وسحرها الحلال العابر للقارات ونثق في حق الشعوب لخوض تجربة وإن بدت مغامرة غامضة غير السير في هوى أرباب السوابق السياسية المخيّبة والمخزية.

فواجب الفهم والاستيعاب وتحري التحليل الموضوعي والاستشراف هو أقل ما يمكن أن نسهم بتقديمه للشعب المصري وللغد العربي والإسلامي القريب والبعيد الذي أراهن أنه لن يبقى مع انطلاقة العقد الثاني من الألفية الميلادية الثالثة وبعد ثورة الشباب في تونس ومصر على نفس منخفض ذلك المسار المنكسر المتعرج. أما اتجاه المسار الجديد أو اتجاهات المسارات الجديدة فهذا هو تحدينا الأكبر الذي لن نستطيع مواجهته بخبراتنا السابقة في التسليم بسياسة الأمر الواقع ولا بتجربتنا التي طالما كانت عرضة للخيبات وللتخلي السريع عن هدف عنيد وبعيد

فـي آن. لذا فلابـد للفكر والرأي من التفاعل الخلاق مـع الواقع والعكس، في ضوء عدم الحياد عن الأساسـيات المبدئية لحياة إنسـانية شـريفة وكريمة. لست أدّعي ولا لأحد أن يدّعي امتلاك فصل الخطاب في هذه اللحظات الدقيقة بين مرحلة التشـظي ومرحلـة الاستشـراف ولذلـك فإنني أكتفي هنا بشـرف طرح الأسـئلة احتراما لطراوة جرحي وحرية عقولنا واستجابة لداعي التفكير في هذه المرحلة التاريخية الحاسمة.

الأربعاء 9/ 2/ 2011

اليوم الثاني بعد الجراحة:

بالـكاد رفعت أهدابـي لأتلمس ببصري معالم الهضبة أو السـاحل الملقى عليه جسدي، عل شارة تدلني في أي مكان من كمين الأمكنة تركتني أو وجدتني. هل أنا بولاية ميرلاند بمدينة بلتيمور في جون

شراسة الساعات الطوووويلة البطيئة التي قضيتها على كرسي جلسة الاستشفاء مقيدة بقضبان من صلب وحديد، تحك جمجمتي طاقية من مسحوق الزجاج لجليد يفـور بمعدل خمسـة درجـات تحت الصفـر. فما ينفثـه ذلك الأنبـوب الأفعوي من زعـاف كحلـي مخضر في فوهـة الجرح حالـة لا تشـبه العنف الجسـدي للكي ولا تمـزّق الأحشـاء عند المخاض ولا عسـر الانسـلاخ الـذي يمر به الأطفـال للتحول من فراشـات ونحول وأزهار إلى مواطنين صالحين في الأوطان المطبقة. إن جلسـة العـلاج الكيميـاوي حالة جافـة جارفة متعجرفة من السـقام اللئيم قـد لا يقاربها إلا ضرب الأعناق بمعاول الكلام أو بطعنة غدر.

ابتهالاتي في سمهرير النهار وبياض الليل

«لا إلـه إلا أنـت سـبحانك إنـي كنـت مـن الظالمين يا حـي يا قيـوم برحمتك استغيث رب أن مسني الضر وأنت أرحم الراحمين».

اللهـم إنـي أمتك ابنة عبدك وابنـة أمتك ناصيتي بيدك مـاض في حكمك عدل في قضاؤك أسـألك بكل أسـم هو لك أنزلته في كتابك أو علّمته أحدا من خلقك أو اسـتأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القـرآن العظيم ربيع قلبي ونور صدري وذهاب حزني وجلاء همي وغمي».

اللهم إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي بل إنني معتزة بنعمة المرض.

حاولت بالاستعاذة بالله وأسمائه الحسنى وبالاستعانة بآيات من كتاب الله المحكم بصوت الشيخ أحمد العجمي الشجي عليّ أحرّر روحي وجسدي من كل أسباب السبات ومن الآلام التي ما برحت تلوي حبال رقبتي وتشبك كل شريان من شرياني الدقيقة وأوردتي في أسلاك كهربائية عارية مباشرة.

فجر الجمعة 4/ 11/ 2011

الكيد لبعد المنال بطول الأمل

إن لم يكن لي أن أكون حاضرة في أي من ميادين التحرير و ساحات التغيير، فإنه لا يليق في تقديري بتواريخ تمردي العذري وبأشواقي المعتقة الطاعنة في عمر العشق الوطني أن أغيب عن سماوات الشعر، أو على الأقل ألا أحضر في مجال التحليل السياسي والاجتماعي لهذه الشلالات البشرية المنطلقة في الوطن العربي بروح فروسية خلف راية الحرية. غير أن «بُعد المنال» لا ينازله إلا ما هو أطول من عمر الإنسان وليس ذلك «لعمري» إلا الأمل.

الاستشفاء بمحو الحبر

بعد يوم طويل آخر لعبت فيه رحى الوجع بعظامي وسلسلة ظهري وحولت أطرافي إلى ما يشبه تراب الرياض بما جعلني في ذروة عذابي أزهو بما في تكويني من زعفران الأرض التي لا هوى إلا هواها، كنت أتطلع إلى لحظة سلام واحدة أبحث فيها عن نفسي بين نثار المواد الأسيدية المستعرة في أعصابي من مشط قدمي إلى بصيلات حواجبي وشعر رأسي. ولكن ما لم يكن في الحسبان أن أجد سلطان النوم يقف لي بالمرصاد يلوح بعصاه في وجهي، فهل يحق لي أن أغمض عيوني فيما الشعب الليبي يستميت بين مخالب الجوارح الخارجية وبين حراب الطاغية في أن يضيف صفحة جديدة إلى سفر الحرية العربية التي رمى شراراتها الأولى البوعزيزي في عروش الخراب؟. من يستطيع أن يستسلم لملمس الوسادة وإن هدمه السهاد بينما دوار اللؤلؤة يسوى بالأرض وتخلط به أوراق حسابات أقدار منطقة الخليج، وميدان التحرير حامل بأجنة التوقعات فيما يرتفع ضغطنا وينخفض تارة

حسب درجة توتر وانفراج أحلام الشعب اليمني في ساحة التغيير، وأخرى حسب مقياس ريختر للكارثة الإنسانية والنووية في اليابان، وكان هذا العام «عام فوران التنور» على عدد من الجبهات لوجستيا وسياسيا.

«لا نامت أعين الجبناء» صهلت جملة خالد بن الوليد في دمي على أبواب درعا بأصوات أبطالها بعد أربعين عام والشعب السوري مثلما في «ضيعة تشرين» للشاعر محمد الماغوط، ليس في نور ليصحو وليس من متسع لأكثر من واحد لينام. وسط هذا الزحام الذي لا يرحم العزل إلا من العلاج الكيمياوي، لم يكن لي إلا أن استحي من قرائي وعشاق مفاتيحي وأخجل مني لو أني سمحت لنفسي بعد ذلك العناء المضني الذي اضطرني للانسحاب عدة أسابيع أن أخلد للنوم. لم يتطلب الأمر إلا أن أتخذ قرارا صغيرا شجاعا بأن أقاوم رشاوي النعاس بين جلسات العلاج فاكف عن التثاؤب و أشق عصا الطاعة على الميتة الصغرى التي تلوح أمامي أو ربما في مخيلتي ليس إلا، لأعود إلى الاستشفاء بالكتابة لمقاومة هذا الزائر الخبيث وإخراجه بإرادة الله إلى غير رجعة.

لا يمكن التعويل على تشكيلات لا تضم الفسيفساء السوري ومكوناته، وإلا فكيف سيتم تغيير الوعي الجمعي النسوي السوري؟

قد تكون الخطوة الأهم هي المطالبة والتأكيد على وجود المرأة في مراكز صنع القرار، وخاصة في التشكيلات المعارضة التي ظهرت، وفرض نسبة مشاركة للمرأة لا تقل عن 30٪ في هذه التشكيلات، وعدم حصر دور النساء في قضايا تعتبر مجالهن الحيوي، أي قضايا المرأة والطفولة، بل فرض وجودهن في القضايا المصيرية المتعلقة بمستقبل البلد ودستوره وقوانينه. رغم ما نسمع من قول أن الوقت الحالي ليس لمثل هذه التفاصيل، وأن الهم الأول هو التحول الديمقراطي والبدء ببناء الدولة.

غير أن غياب المرأة عن تحديد مصير ومستقبل البلد، سيؤدي تالياً لغيابها عن حقوقها عند وضع الدساتير والقوانين.

إذن هو صراع تدفع فيه نساؤنا ثمناً كبيراً اليوم، وثمناً أكبر سيدفعنه تالياً. نحن نراهن على عودة النساء للاهتمام بكل ما يمس حياتهن ومستقبلهن ومستقبل أطفالهن، كما نراهن على قدرة النساء على المشاركة رغم اختلاف الخلفيات العقائدية والدينية والمناطقية، لا يهم إن كان وجهها مغطى، أو محجب أو سافر. فاللحظة تفرض نفسها عليها وعلى محيطها لتقوم بأدوارها المتعددة، ويجب أن لا تقبل بدور الدرجة الثانية أبداً.

وعلى الرغم من أن صوت الرصاص والموت والدمار هو ما يعلو اليوم، إلا أن المراهنة لليوم والمستقبل سيكون بأن المرأة هي صوت العقل، كما صوت البناء والمستقبل.

وعندما تزداد صرخات الثأر، ستكون هي صوت الحكمة. هكذا كانت أبداً وهكذا ستكون اليوم وغداً.

النساء اللواتي عرفن طعم الحرية، وعرفن ثمنها، وقدّمن كل ما يملكن من أجلها، لا يمكن أن يعدن إلى الوراء، فهن جزء من التغيير الحاصل، كما هنّ جزء من المستقبل الذي يحتاج كل مكونات المجتمع للوصول إليه، فالثورة كانت على كثير من التابوات التسلطية والمجتمعية والطبقية والتمييزية. والنساء وعين هذا ولن

يقبلن العودة إلى بيوتهن خاليات الوفاض.

وحتى ننتصر وينتصرن وينتصروا... ما زال السوريون والسوريات يدفعون الثمن غالياً، دماً ودماراً وفقداناً ونزوحاً ولجوءاً ووجعاً يومياً مستمراً بالنزيف.

نور طفلة لاجئة «بيتها» مغسل الموتى... تشبهني أو تشبه سوريا

هند رجّوب

أصوات قصف متقطع ومشاهد للدمار الهائل رسمت ملامح مدينتي حمص التي تعد مسقط رأسي. دخان أسود متصاعد من الريف الدمشقي أراه من شرفتي «الخائفة» التي تركتها على أطراف حي الميدان بدمشق حيث أعيش مع عائلتي. فقر بسبب الحرب وقصص تكاد لا تنتهي عن أرواح صعدت إلى السماء لن تكون لي أبداً مجرد أرقام. وجه سائق التاكسي الخائف الذي أقلنا من كراج السومرية شرق دمشق إلى نقطة عبور المصنع في لبنان. شريط ذاكرة كاد أن يعطب ويتوقف حين الوصول افتراضيا إلى البلد الآمن وتلك البيئة الحاضنة للسوريين حسب وصف بعض المعارضين أو حتى المؤيدين للنظام.

اعتقدت أن أشهرا قليلة قد تكون كافية لعودة الهدوء إلى دمشق أو إلى سوريا كلها. وأعلنت هنا في بلد وصفنا بالنازحين وليس باللاجئين أنني أبحث عن نساء أو أطفال بحاجة إلى مساعدتي كمعلمة، أو بحاجة إلى طرق الإرشاد إلى منظمات الإغاثة التي تساعد السوريين الهاربين من الموت.

السكن أصبح مؤمناً لي ولأمي، وكذلك جردة حساب لما نملكه من نقود قد تكفينا لتلك الأشهر التي اعتقدت أنها كافية حتى عودتنا إلى سوريا.

بدأت التعليم بعد أشهر من قدومي إلى لبنان كخيار أخلاقي تجاه الأطفال السوريين المنتشرين في القرى والبلدات القريبة من سكني. وحتى اليوم ورغم تلك الخيبة بمرور أكثر من عامين على الأحداث في سوريا لم تتوقف مشاهد الدمار والموت، فاكتشفت متأخراً أني كنت ساذجة التفكير عندما اعتقدت أن الأمور ستنتهي بأشهر.

من القصص المؤلمة التي شاهدتها خلال عملي التعليمي والإغاثي، قصة الطفلة نور، وهي طفلة سورية من حي الحجر الأسود في دمشق.

لم تعرف نور التي لم تتجاوز الثامنة من عمرها «مغسل» الموتى إلا بعد أن

وصلت مؤخرا مع عائلتها إلى لبنان هربا من قصف النظام لحي الحجر الأسود بدمشق.

قالت لي في المرة الأولى حين التقيتها بينما كانت تلعب قرب «مقصورة» الموتى: لقد نسيت «الدكان» والشراء منه و«ما معنى مصاري». تحاول الدخول والخروج من الباب الرئيس لمبنى غسل الموتى ولا ألعاب تذكر في المكان لطفلة نسيت معنى الفراغ أو حتى معنى المدرسة. فقط رائحة الموت وحده دخلت روحها وتغلغلت بين أغراض العائلة الموزعة هنا وهناك.

وأخذت أتقصد زيارة البلدة الصغيرة حيث تسكن نور لأرى ما حل بعائلتها، وهل تحقق حلم الأمان لطفلة لا تعنيها حروبنا أو حروب الآخرين.

كانت تسمع أطراف الحديث مع والدتها ووالدها «بدنا خيمة» طلب ردده والد نور عشرات المرات أمامي، عندئذ نام الحزن في عيون نور ونظرت إلى البعيد، أخبرني والدها آنذاك:» صار لنا في هذا المكان ما يقارب الأسبوع، حين هربت مع أطفالي من الحجر الأسود وبقيت زوجتي محاصرة هناك إلى أن حضرت منذ يومين وكما ترون هذا المكان لغسل الموتى».

آلاف الأطفال السوريين في لبنان يعانون مثل نور بدءاً من تحطّم طفولتهم من الجوع والفقر وندرة التعليم رغم كل ما يقال عن نشاطات الجماعات والمنظمات الأهلية.

قلت لنور لماذا لا تنامون في بيت غير هذا المكان «ابتسمت ولم تجب» صاحت بها والدتها بأن تجلب إبريق الشاي من «تحت» الطنجرة المركونة على «المقصورة»، غادرت مسرعة فقالت الوالدة: «منذ عامين زوجي لم يعمل كان يستدين من هنا وهناك وحين وصلنا لبنان لم يكن معنا إلا إيجار الطريق.. كيف لنا أن نستأجر بيتا».

مغسل الموتى كما رأيته مبعثراً بفوضاه يشبه حياة العائلة التي تسكن فيه حين هربت من الموت لتسكن في مكان يحمل الرائحة فقط، ألبسة مرمية على الأرض وشيء يشبه الطاولة وألبسة منشورة على حديد «المقصورة»، وحتى اليوم لا بديل مفرح لتلك العائلة، لا في السكن ولا بوجود لقمة العيش.

في جلسة مع والد الطفلة نور حكى لي عن الاتفاق الذي جرى بينه وبين أهل البلدة يقضي بأنه إذا توفي أحد من البلدة على عائلته أن تخرج أغراضها من المغسل وذلك لتتم مراسل الدفن، وبعد الدفن بإمكانهم أن يعودوا، وكل ذلك ريثما يؤمنون منزلا أو خيمة.

نـور أخبرتني همسـا حين كنـت أزورها ما بين فترة أو أخـرى بأنها.. تتمنى أن يبقـى الجميـع أحياء ولا يموت أحد في البلدة حتى يسـقط النظام وتعود إلى منزلها فـي حـي الحجر الأسـود... فكرة وربمـا حكمة وأمنيـة تنتهي حين تعلـن في الأيام المقبلة إذاعة مأذنة المسجد القريب: يا إخوان توفي اليوم.. أخوكم بالله.

لـم تكن قصة الطفلـة نور حكاية عابرة بالنسـبة لوجودي كلاجئـة في لبنان بل كانـت تختصر حالات لأطفال سـوريين ناموا وعائلاتهم فـي زرائب البقر وغرف لا تصلح لسكن الحيوانات.

خلال عودتي أو ذهابي إلى حالة سورية صعبة يكون قد أبلغني عنها زملاء لي أتخيـل أن البلاد وجغرافيتها قد أصبحت مغسـلا كبيرا للأموات الذين يسـقطون بلا طقوس ولا صلوات.

فالمـوت لغة واحدة في كل دول العالم إلا في بلدي، أصبح بلا لغة أو ملامح لا بل أصبح حياة لأشـخاص يعتقدون أنهم أحياء، فعدا عن كل شـيء أصبح الطفل السـوري «مصدر» منافسة للكثير من العاملين في المجال التعليمي والإغاثي وأصبح مصدرا للرزق وجلب النقود، إذ إن صور الأطفال السوريين تصدرت مواقع التواصل الاجتماعـي أو حتى المواقع الإخبارية، وأصبحت المنظمـات الدولية تجلب الكثير من مشاريع للأطفال السوريين.

كنـت أراها مشـاريع فارغـة الروح حين كنـت التقي الطفلة نـور، لا بل عديمة الجـدوى حيـن أنظـر إلـى وجهها الشـاحب الذي أخـذ من الجـدران لون القسـاوة والبؤس.

لم أسـتطع كسـورية لاجئة في لبنان أن أحمي الأطفال من الاسـتغلال أو حتى التحـرش أو حتـى أن أؤمّن لهـم الحماية التعليمية أو أمنهم الغذائي، لـم أسـتطع إلا الوقـوف بجانب حالات معـدودة وكأني أراوح في المكان، وعـادة ما تعود الصورة

المؤذيـة لروحي صورة سـحب الدخان القريب من شـرفتي بدمشـق أو صور الدمار الـذي حـوّل البلـد إلى جسـد منهك ومريـض لا يقـوى أن ينظر فـي وجوهنا، نحن السوريين العبوسين الطيبين.

بعد عامين من وجودي في لبنان أيقنت تماما أن العمل هنا أشبه بمعجزة لكثرة الكراهيـة في هذا البلد، وخصوصـاً تلك الكراهية التي خلّفتها أحزاب وشـخصيات عكسـت سـلوكها على اللاجئ السـوري ليصبح جزءاً من بلد مقسـم في المضمون ومتّحد في الشكل.

أبحـث عن طرق جديدة لزراعة الأمل عند الكثير من الأطفال وحين لا أجدها أيقـن تمامـا بأنـي فاقدة للأمـل في تلـك اللحظـات التـي أرى فيها وجـوه الأطفال السوريين في لبنان والتي بدت مؤخراً دون ملامح مثل الطفلة نور ومثلي أنا وكذلك مثل سـوريا تماما... ومـع كل ذلك أتابع البحث عن مجـرد صوت يحمل معي همّ الوطن... البعيد القريب.